# نشأة رابح

# تحت لواء الزبير

« أصل رابح ـ عصامية الزبير ـ جيش الزبير
رابح يقضى على البلالى ـ المدرسة التى تربى
بها رابح ـ الزبير يغادر السودان ـ من
مذكرات الزبير . . »

فى نحو عام ١٨٤٦ وفى قرية من قرى بحر الغزال حيث كانت تعيش قبائل متعددة الأسماء والعادات واللهجات وان اشتركت جميعها فى أنها تعيش على حال من البداوة الأولى، وتغرق فى ظلمات من جهل كثيف ، ويتقاتل بعضها مع بعض فلا تهدأ المعارك بينها يوماً واحداً . . فى تلك البيئة المضطربة التى يحكمها قانون الغابة الأول وتتصارع فيها قوى العبودية والظلام . . خرج « رابح » إلى الدنيا . .

خرج « رابح » إلى الدنيا بعد خمسة عشر عاما من مولد رجل آخر فى الشمال هو « الزبير رحمت العباسى » الذى كان قد تفتحت عيناه فى الثامن من يوليو عام ١٨٣١ على حياة من نوع آخر فى جزيرة « واوسى » التى لم تكن تبعد كثيراً عن الخرطوم حيث الأمن ، والدعة ، والسلام تنشر أستارها الهادئة البيضاء . .

الفريق الزبير رحمت باشا

ولقد قدر لهذين الرجلين بعد ذلك ، وعلى بعد ما بينهما من زمن ونشأة ومكان أن يلتقيا فى منطقة بحر الغزال ، وأن تتصل بينهما الأسباب فى وقت كانت فيه تلك الأصقاع قد بدأت تهتز تحت زعامة الزبير الشعبية متطلعة فى ظلها نحو حياة أسعد وأفضل ، وأن تبلغ منزلة رابح ، ذلك الشاب المغامر الجرىء ، منزلة رفعية سامية من نفس الزبير فيقربه اليه ويسلمه قيادة جيشه وهو لما يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، ثم لا يلبث أن يتبناه ويضيف إلى إسمه لقب « الزبير » ليعرفه تاريخ الجنوب بعد ذلك ، وتعرفه وقائع الجهاد ضد الاستعمارين الفرنسى والانجليزى فى زحفهما نحو قلب أفريقيا ، باسم « رابح الزبير . . »

ولقد تضاربت الأقوال فى حقيقة نسب ذلك القائد فظل غامضاً حتى اليوم وأن كان القول الراجح بشأنه ، وهو الذى أيده القائد الفرنسى « أميل جنتيل Emile Gentil » الذى قاد المعارك الأخيرة ضد رابح ، أنه كان ابنا لأحد ملوك القبائل التى تستوطن حوض بحر الغزال وأنه نشأ نشأة حربية خالصة فشارك أباه وهو لما يزل صغيراً فى المعارك التى يخوضها ضد القبائل المجاورة ، حتى لقى أبوه فى النهاية مصرعه فى إحدى تلك الغزوات وكان رابح ما زال شاباً يافعاً ، وكان نجم الزبير قد بدأ يعلو وصيته قد بدأ يذيع جاذباً حوله الأنصار والأتباع من أهل تلك البلاد ،

فانضم إليه رابح ومنذ ذلك الحين بدأ قدره الذى ربط بينه وبين الزبير يعده فى صبر واناة لكى يلعب دوره المقبل .

* * *

إن تاريخ الزبير وارتباطه الوثيق بحياة رابح الأولى بل وبعجلة التطور عامة التى لحقت باصقاع السودان الجنوبية فى مطلع النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ليجعل من المستحيل على من يريد أن يؤرخ لهذه الحقبة الهامة من تاريخ السودان أن يغفل عن الالمام به والتعرف عليه . وبالرغم من أن ذلك التاريخ بتفاصيله الممتعة ليس مكانه فى الواقع هو هذا الكتاب [1] ، إلا أن ذلك لن يمنعنا من التعرض له هنا فى إيجاز بقدر ما تفرضه علينا محاولة تتبع نشأة رابح والظروف التى أعدته ليكون قائداً ممتازاً .

نزح الزبير إلى الأصقاع الجنوبية فرداً مغموراً أول الأمر فى خدمة واحد من كبار التجار هو « على أبى عمورى » فلم تلبث شجاعته وهمته أن برزت به إلى الصفوف الأولى ولفتت اليه أنظار مخدومه الذى لم يجد بدا من اختياره كمساعد له غير أن الآمال التى كانت تجيش فى صدر الزبير لم تقنع بذلك النجاح بل دفعته ، وقبل أن يمضى على وصوله إلى تلك البلاد وقت طويل ، إلى أن يستقل فى عمله وأن يبدأ فى الاتجار لحسابه هو .

---

(١) راجع كتاب ( الزبير باشا رجل السودان ) ـ المؤلف.

ورويداً رويداً مضت تجارة الزبير تنتقل من رواج إلى رواج وساعدته مصاهرته للملك « تكمة » ملك نيام نيام على توسيع دائرة نفوذه وتجارته ، كما ساعده ما جبل عليه من مهارة فى اجتذاب القلوب ومن حسن معاملته لتابعيه على ذيوع صيته فى تلك الأصقاع مما حدا بالناس إلى الدخول فى خدمته ، وكان من بينهم رابح كما قدمنا . . ولقد أدى كل هذا إلى توطيد مركز الزبير ونمو زعامته نموا أخاف ملك نيام نيام نفسه وملوك القبائل المجاورة فمضوا يحتكون به ، ويكيدون له ، ويتربصون بتجارته الأمر الذى دفع الزبير إلى التفكير للمرة الأولى فى أن يتخذ لنفسه جيشاً ، لحماية تجارته ونفوذه المتزايدين . .

وكانت العادة قد جرت فى تلك البلاد على أن يعرضوا للبيع فى الأسواق أصحاب الجنايات كاللصوص والزناة حيث يذبحون كالنعاج وتباع لحومهم طعاماً لمن يشترى . ولقد انتهز الزبير الفرصة فكان يفتدى من الذبح من بين هؤلاء الجناة من يراه أهلا لحمل السلاح حتى اجتمع له نحو خمسمائة رجل اعتقهم من ذلك المصير المرعب فضمن بذلك ولاءهم المطلق له ثم زودهم بالسلاح بعد أن دربهم على استعماله وبهذا كوّن النواة الأولى لجيشه ، وبهذا الجيش مع من دخل فى خدمته من أهل البلاد حارب الزبير الملك « تكمة » والملك « دوبة » والملك « شكو » وكان هؤلاء من أقوى ملوك

القبائل فى تلك المنطقة فما كاد يفرغ من هزيمتهم حتى دان له باقى الملوك بالطاعة والولاء واستتب له الأمر فى منطقة مترامية الأطراف فى حوض بحر الغزال فلم يلبث أن اتخذ من « باية » وهى التى عرفت بعد ذلك باسم « ديم الزبير » عاصمة له يدير منها شئون مملكته المتزايدة النمو ويستقبل فيها أفواج الناس ورؤساء القبائل الذين يقبلون للانضمام اليه (١) .

* * *

أظهر رابح فى خدمة جيش الزبير من الموهبة الحربية ما لفت اليه أنظار ذلك الرجل الذى كان يعرف حقا كيف يختار الرجال والذى لم تخطىء فراسته أبداً فى الحكم على مواهب من حوله من الأتباع .

وكان الزبير إبان زيارته للمناطق الواقعة غرب بحر الغزال قد التقى هناك بكثير من العبيد الذين آثروا الفرار من أسيادهم فى بلاد الكلكلة ودار التعايشة وغيرها من المناطق وأقبلوا نحوه يطلبون الأمان ، ولما كان الزبير فى حاجة إلى إعادة تكوين جيشه الذى استهلك نواته الأولى قتاله مع القبائل المحيطة به ، لذا فقد اختار من بين هؤلاء العبيد حوالى الستمائة من الرجال الأشداء وزودهم بالسلاح والذخيرة وأسند قيادتهم لرابح وهو

(١) كتاب « العاج الأسود » لمؤلفه هـ . جاكسون صفحة ٣٠

لما يزل شابا فى نحو الثالثة والعشرين من عمره والذى كان بلاؤه واخلاصه ومقدرته الفذة فى تأديب العصاة من رجال القبائل المحيطة بأملاك الزبير قد أسرع فى الصعود به درجة أثر درجة ، وأهله ولما يمض على التحاقه بجيش الزبير أكثر من عامين لأن يحتل من قلب الزبير مكان الابن تماماً حتى أنه لم يتردد فى النهاية فى إعلان تبنيه لهذا الفتى الشاب الذى يحذق فنون القتال حذقا غريباً وضمه إلى أسرته (١) .

أخذ جيش الزبير بعد ذلك ينمو فى سرعة عجيبة ويتزايد عدده بمن يقبلون للتطوع فيه من أهل البلاد كما قدمنا . وهكذا عندما تعرضت قوة الزبير الحربية لأول خطر جدى صادفته ممثلا فى حملة البلالى الذى أرسله خديوى مصر إسماعيل باشا كان جيش الزبير عندئذ قد بلغ حوالى الأربعة آلاف رجل أبقاهم الزبير تحت قيادة قوادهم وزعمائهم أنفسهم وإن كان الجميع بعد ذلك يخضعون فى النهاية للقيادة العليا التى أسلمها إلى رابح دون أن يندم على ذلك يوماً واحداً فيما بعد .

* * *

(١) كان من عادة الزبير أن يتبنى الأفراد من أهل الجنوب ممن يظهرون حذقا ومواهب ممتازة ويتزلهم من نفسه منزلة الأبناء . ولقد تبنى إلى جوار رابح ، رجب الزبير من مواليد بحر الغزال وقد الحقه عند حضوره إلى مصر بخدمة البوليس المصرى حتى بلغ رتبة معاون إدارة مركز تلا وتوفى بمصر . كما تبنى على فائق الزبير الذى صاحبه فى منفاه بجبل طارق وتوفى وهو ما زال طالبا بالسنة النهائية بالكلية الحربية بالقاهرة ، وغيرهم .

قلنا أن الزبير فى أوائل عهده بحكم تلك البلاد التى دانت له بحد السيف قد تعرض لخطر جدى ممثلا فى حملة البلالى . والبلالى هذا كما قال عنه المستكشف الألمانى الدكتور جورج شفانيفورث فى كتابه « فى قلب أفريقيا » رجل أفاق استطاع أن يخدع خديوى مصر وأن يضلل حكومته عن حقيقة الوضع فى بحر الغزال لتضعه على رأس قوة توجه لاحتلال « حفرة النحاس » وهى بلدة تقع على شواطىء بحر الغزال واستغلال مناجم النحاس بها لحساب الحكومة المصرية . وكان لا بد لهذه القوة إن آجلا أو عاجلا أن تصطدم بقوة الزبير بوصفه الحاكم الفعلى لتلك المنطقة (١).

ولكن الزبير لم يكن فى نيته على أى حال أن يقاوم الحكومة المصرية فعمد فى أول الأمر إلى تسهيل مهمة البلالى ومده بكافة المساعدات التى تعينه على تنفيذ أهداف حملته غير أن البلالى هذا لم يلبث أن تجاوز حدود مهمته فمضى يؤلب التجار على الزبير ويكيد له ويحرض القبائل ضده فكان لابد للزبير فى النهاية من أن يصطدم بالبلالى اصطداما مباشراً اتاح له أن يجرب قوته الحربية ومقدرة قائده الشاب رابح فى معركة حقيقية لأول مرة ضد جنود نظاميين .

نشبت الحرب إذن بين الزبير والبلالى بعد فترة من المهادنة لم تدم طويلا . . وكانت قوات البلالى تتألف من أربعة آلاف

---

(١) « فى قلب أفريقيا » لمؤلفه جورج شفا ينفورث الجزء الثانى صفحه ١٩٥ ـ ١٩٧ .

جندى نظامى مزودين بالعتاد والذخيرة [1] أما رابح القائد الأول لجيش الزبير فقد كان متغيبا فى تلك الفترة فى مهمة بعيدة .

وبعد عدة مناوشات متفرقة التحم الزبير بالبلالى فى أول معركة جدية عند أسوار عاصمته « ديم الزبير » لم تلبث أن انتهت بارتداد البلالى إلى « دار موفيو » بعد أن كبد قوات الزبير خسائر جسيمة وبعد أن أصيب الزبير نفسه بجرح خطير فى قدمه اليمنى عاقه عن مطاردة البلالى واضطره إلى العودة إلى عاصمته محمولا على اكتاف رجاله .

مضى البلالى بعد ذلك يتحصن فى « دار موفيو » ويعيد تنظيم قواته استعداداً لمعاودة الهجوم على الزبير الذى كانت حالته الصحية قد بدأت تسوء سوءاً بالغاً من جراء الجرح الذى أصيب به حتى لقد باتت حياته يتهددها خطر الموت تهديداً بالغاً . فى هذه المرحلة الحرجة عاد رابح من مهمته البعيدة إلى « ديم الزبير » ليجد ربيبه وقائده على هذه الحال من السقم ، والعدو متربص بهم مستعد للانقضاض عليهم فكان عليه عندئذ أن يحمل العبء بمفرده وأن يخوض معركة حياة أو موت ضد البلالى وهى المعركة التى كان يتوقف على نتيجتها تقرير مصير الملك الذى أقامه الزبير فى تلك المنطقة والتى

---

(١) راجع كتاب « العاج الأسود » صفحه ٤٠ . وكتاب ( تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ) تأليف نعوم بك شقير صفحه ٦٧ .

يعتبرها المؤرخون بحق نقطة البدء فى سلسلة الانتصارات الحربية والسياسية التى أحرزها الزبير بعد ذلك فى جنوب السودان .

التقى رابح بالبلالى عند « ديم جيجو » بالقرب من دار موفيو وكان الأخير قد بدأ سيره لمعاودة الهجوم على ديم الزبير . ونشبت المعركة بينهما فى فجر يوم من أيام إبريل عام ١٨٧١ فلم تلبث أن دارت الدائرة على البلالى بعد قتال مرير كلفه حياته وأوقع بقواته هزيمة ساحقة قضت عليها نهائيا ..

وقفل رابح ، القائد الشاب الذى لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، عائداً إلى ديم الزبير بهذا النصر الرائع الذى دفع حكومة الخديوى بعد ذلك إلى قبول الأمر الواقع والاعتراف رسميا بوضع الزبير القائم فى منطقة بحر الغزال كحاكم وسيد لها ، والذى لم يلبث أن ذاع فى أرجاء السودان كله فدعم مركز الزبير ومقدرة قائده رابح تدعيما رائعا حتى أنه لم يكد يمضى على هذا النصر عام واحد حتى كان للزبير جيش يبلغ تعداده حوالى الأثنى عشر ألفا وعلى رأسه نفس القائد الشاب رابح الزبير ..

* * *

كيف اتفق للزبير أن يترك القيادة العليا لجيش ضخم كهذا لم تشهده أصقاع الجنوب من قبل لشاب يافع كرابح فى الوقت الذى كان فيه هذا الجيش يضم بين أركانه رؤساء للقبائل وملوكا حنكتهم التجارب يكبرون رابح بعشرات السنين . ؟

للاجابة على هذا التساؤل يجدر بنا أن نقف قليلا لنفصل بعضا من جوانب السياسة التى كان ينتهجها الزبير فى حكم تلك البلاد وقيادة شعبها .

كان الزبير حريصا دائما، وهو الذى وفد إلى تلك البلاد قادما من الشمال ، على أن يفهم أهلها تماما أنه لم يجئها غازيا أو فاتحاً . . فالجيش الذى التف حوله كان كله من أهل تلك البلاد أنفسهم ، وقواده من بين رؤسائهم وملوكهم وهو وإن كان قد تحالف مع هؤلاء الملوك والرؤساء وضمهم إلى جيشه إلا أنه لم ينس أنه قد سلبهم سلطانهم المطلق على رعاياهم وأن محاولاته نشر الأمن فى تلك الربوع ، واشاعة العدل بين الرعايا هى فى الواقع أضعاف غير مباشر لنفوذ هؤلاء الرؤساء القائم على السلب والاغتصاب .

لذا فقد كان طبيعيا عندما يفكر الزبير فى إسناد قيادة جيشه العليا لواحد من أبناء البلاد أن يتخطى هؤلاء الكبار وأن يختار لذلك رابح ، ابن الجنوب البكر ، لا لأن رابحاً هذا كان أسيرا عنده مقرباً إلى نفسه كما قد يتبادر إلى الظن ، فالزبير لم يكن أبداً ممن يسمحون للعواطف أن تفسد عليهم خططهم ، وإنما لأن رابحاً كان إلى جوار مواهبه الحربية التى مرن عليها منذ فجر صباه يمثل بالنسبة للعهد الجديد الذى أراد أن يقيمه الزبير فى بحر الغزال : التطور الجديد والفكرة الجديدة والعزم الجديد . . ولكى نزيد هذا الكلام وضوحاً نقول أن

الزبير كان يريد أن يخرج بالبلاد التى أسلمته زعامتها من الطور القبلى الذى كانت تعيش فيه إلى طور الأمة الموحدة التى يسودها عهد جديد يعم فيه الرخاء عن طريق ازدهار التجارة وينتشر فيه نور العلم بين الجميع مع انتشار نور الاسلام بينهم . فالزبير كان تاجراً وهو لم ينس هذه الصفة حتى بعد أن أصبح حاكما وسلطانا وكان من المستحيل أن تزدهر التجارة وأن تكون بلاده ملتقى لطرق التجارة الآمنة إلا إذا حقق أهدافه هذه . وكان لا بد له لتحقيقها من القضاء على سلطة رؤساء القبائل الذين تتعارض مصالحهم البدائية مع هذا الهدف البعيد .

ولقد أثبت رابح فى ذلك الزمن القصير الذى انقضى على التحاقه بخدمة الزبير من المواهب العسكرية ما أهله ليكون الساعد الأيمن للزبير فى تنفيذ سياسته هذه فكان طبيعيا أن يقربه إلى نفسه وأن يطلق يده فى قيادة الجيش الذى كان يعول عليه فى تحقيق أهدافه .

ولقد تعلم رابح فى كنف الزبير الشىء الكثير عن حكم الشعوب وفن قيادتها حتى لتعتبر تلك الفترة من حياته التى قضاها محاربا تحت الوية الزبير المدرسة الحقيقية التى أعدته فيها الأقدار بنجاح لكى يلعب الدور الذى كان ينتظره فى ممالك برنو وودّاى وعلى شواطىء بحيرة تشاد بعد ذلك . ولعل رابحاً بذلك يكون مدينا

الزبير بكل ذلك النجاح الذى قدر له أن يلقاه فيما بعد وإن كان هذا لا ينقص من قدر رابح شيئاً كما لا ينقص من قدر الزبير هو الآخر أنه يعتبر مدينا لرابح بالكثير من فتوحاته وانتصاراته .

وسوف نرى فى الفصول القادمة كيف سار رابح فى حروبه ضد الاستعمار الفرنسى للسودان الوسطى ، وفى محاولة تكوين امبراطورية تصمد للفتح الفرنسى وتجمع بين القبائل المتناثرة حول بحيرة تشاد وسواحل نهر شارى فى أمة موحدة ذات كيان واحد ، سوف نرى فى تفاصيل ذلك كله كيف كان رابح يحاول أن يطبق خبرته التى اكتسبها فى حروبه تحت لواء الزبير وأن يسير على نهج سياسته التى تركت فى بحر الغزال تاريخاً مجيداً لنشأة القومية وظهورها .

* * *

سار رابح ، بعد معركة البلالى ، تحت لواء الزبير ينتقل معه من نصر إلى نصر ويستكمل تجاربه فى الحرب والسياسة خطوة بعد خطوة ، ويهز مع ربيبه قوائم مملكة دارفور تلك الثمرة الشهية التى فتح الطريق اليها باخضاع عرب الرزيقات أولا ، ثم باحتلال « شكا » ثانيا ، حتى نضجت الثمرة فى النهاية واستطاع الزبير بجيشه المظفر الذى كان رابح ، وهو لم يتجاوز بعد الثلاثين من عمره ،

على رأس ضباطه وأقدرهم [1] احتلال الفاشر واخضاع دارفور نهائيا فى الثالث من نوفمبر عام ١٨٧٤ .

وانفتح الطريق إلى الغرب بعد سقوط دارفور ، وفتح الزبير لنفسه ولقائده الشاب ميدان قتال جديد فى هذا الاتجاه حتى تعفرت

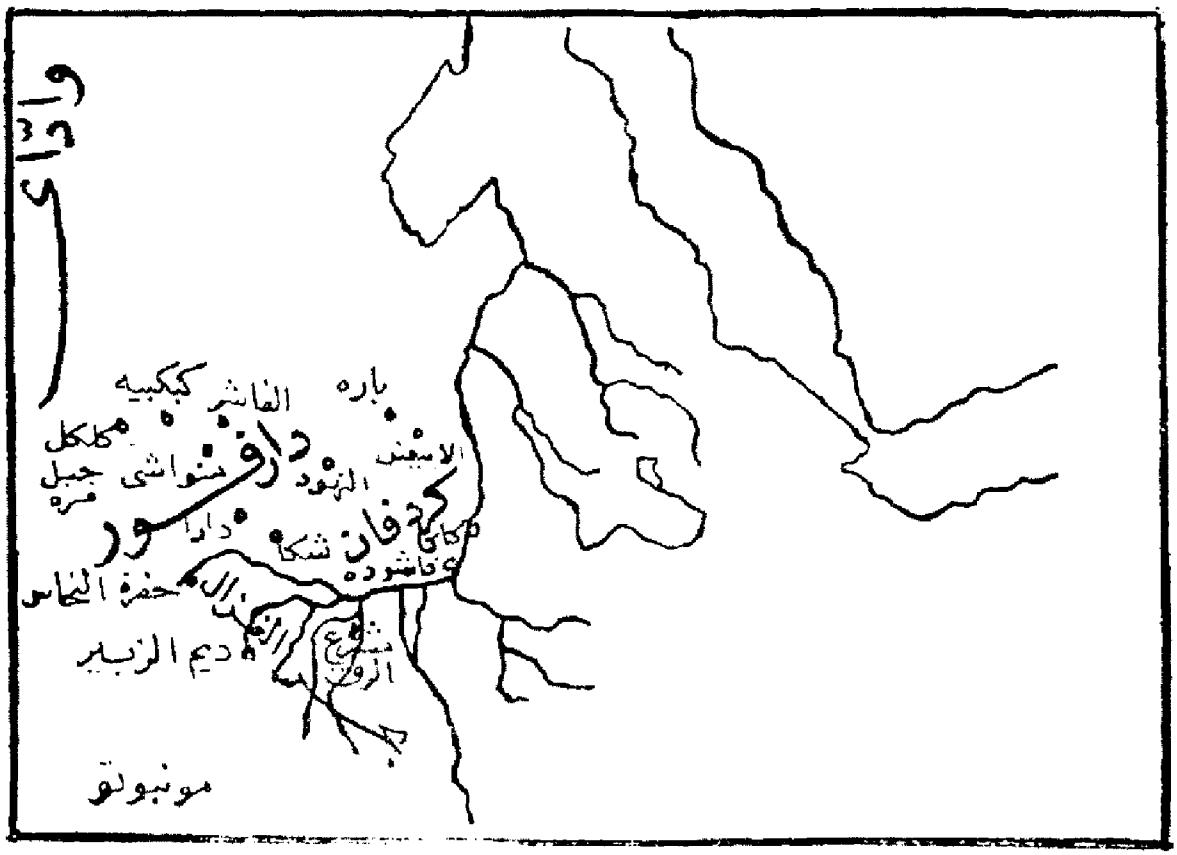


فتوحات الزبير فى دارفور

أقدامهما بتراب « ودّاى » التى لم يقيض لها فتحها فعادا إلى دارفور من جديد دون أن يعلم رابح أنه سوف يعود مرة أخرى إلى تلك البلاد ليكون له فيها شأنا آخر . .

---

(١) كتاب « حياة السلطان رابح » لمؤلفه جاستون دى جاريك طبعة باريس ١٩٠٢ ص ١٤ .

وبعودة الزبير من غزوة ودّاى هذه بدأت أيامه فى السودان تقترب سريعاً من نهايتها إذ لم يلبث أن دعى إلى القاهرة لمقابلة خديوى مصر ، وجاءت هذه الدعوة فى الواقع نتيجة للمؤامرات والدسائس التى نسج خيوطها اسماعيل أيوب حاكم السودان وقتئذ الذى أراد أن يتخلص من نفوذ الزبير فى السودان بابعاده عنه .

واستجاب الزبير إلى دعوة القاهرة بالرغم من معارضة رابح لها ومحاولة ثنيه عنها فكان هذا إيذاناً بانتهاء تلك الحقبة الهامة من حياة رابح التى عاشها تحت لواء الزبير إبنا له ، وقائداً لجيوشه وتلميذا يأخذ عنه دروس السياسة والحرب فيعيها فى ذاكرته ليوم قريب ..

رحل الزبير إذن عن السودان فبلغ القاهرة فى أوائل عام ١٨٧٥ حيث احتجزته الدسائس والمؤامرات فلم يقدر له أن يرى رابحاً بعد ذلك وإن كان لم يغفل يوما عن متابعة أخبار فتوحاته فى الغرب وكفاحه المجيد هناك ضد الاستعمار الفرنسى .

* * *

جاء فى مذكرات الزبير [1] عن حوادث عام ١٨٩٦ الفقرة التالية :

« . . . حدث فى هذا العام أن زارنى سراً وفى بهيم الليل

---

(١) راجع كتاب « الزبير باشا رجل السودان » للمؤلف صفحة ١٤٥ــ١٤٦ .

بعض كبار الفرنسيين من أصحاب النفوذ فى بلادهم وبقوا معى إلى مابعد منتصف الليل بساعتين يحاولون إقناعى بأن أسعى لعقد اتفاق بينهم وبين رابح قائدى القديم الذى كان قد أبى التسليم لجيسى مع ابنى سليمان ومضى نحو الغرب بألف من الرجال المسلحين إلى أن وصل برنو ففتحها وأسس فيها ملكا عظيما جعل عاصمته دكوة جنوبى بحيرة تشاد إلى أن دخلت برنو هذه فى نطاق نفوذ الفرنسيين فجردوا عليه جيوشهم ولكنه كان ما يزال القائد الذى سار تحت لوائى من نصر إلى نصر فهزم هذه الجيوش فى أكثر من معركة دامية. ولهذا التجأوا إلىّ طالبين أن أستعمل نفوذى لدى رابح لايقاف هذه الحرب ولأطلب منه الانسحاب من برنو وعرضوا علىّ فى مقابل هذا المبالغ الطائلة مع استعدادهم لتنفيذ كل ما أطلبه منهم.. غير أنى رفضت عروضهم هذه .. كنت قد نفضت يدى من أمور القتال وما يجرى بالسودان منذ مصرع ابنى سليمان وإن كنت قد أحسست لذكر رابح وأنباء الحروب والغزو بريح حزينة ناعمة تهب فى صدرى وتسوق لى مواكب الماضى وذكريات أعوام طويلة قضيتها بين رائحة البارود وهتاف النصر وأناشيده...»

# ضد الاستعمار الانجليزى

« سليمان يواجه دنس الاستعمار —
غوردون يتربص بتراث الزبير — روميللو
جيسى — كفاح سليمان — عند سفح
جبل مرعى — خديعة روميللو — رابع
يغادر السودان — حقيقة الرجل الأبيض »

لم يكد الزبير يغادر السودان حتى بدأت منطقة بحر الغزال تشهد أحداثاً من لون جديد تهدف إلى القضاء على ذلك التراث الضخم الذى أقامه الزبير وخلفه وديعة فى يد ابنه سليمان وقائده رابح..

وكان سليمان الزبير ، الذى خلف أباه فى حكم مديرية بحر الغزال ، حدثاً لم يتجاوز بعد الواحدة والعشرين من عمره عندما بدأ يواجه مؤامرات غوردون الذى كان قد عين حاكماً عاماً للسودان خلفاً لاسماعيل أيوب والذى لم يأل جهداً منذ اليوم الأول لتعيينه هذا فى التمهيد للاستعمار الانجليزى وفى خلق الظروف والأحداث التى يستطيع فى زحمتها وتناقضها أن يمكن لقبضة الاستعمار من الالتفاف فى خسة ودناءة حول عنق ذلك الجزء من الوادى .

بدأ غوردون مؤامراته بالتطلع إلى القضاء على تلك القوة الحربية الضخمة التى أقامها الزبير فى منطقة بحر الغزال والتى كانت لا تزال تجتر فى نشوتها بما أحرزته من انتصارات باهرة نتائج الوثبة التى نقلها إليها حكم الزبير وزعامته الشعبية . وكان طبيعياً ألا يسكت غوردون ، وهو كما قدمنا طليعة النفوذ الانجليزى الذى كان قد بدأ يحكم مصر ويتطلع لحكم السودان ، عن هذه القوة أو يطمئن إلى وجودها . فان جيشا يبلغ تعداده الاثنى عشر ألفاً ويدين بالولاء لسليمان الزبير الذى ورث نفوذ أبيه فى تلك المنطقة كان يعتبر خطراً حقيقياً على أطماع الانجليز كما اعتبر من قبل خطراً بالغاً على أطماع الحكم التركى الفاسد الذى كان يمثله اسماعيل أيوب والذى من أجله أبعد الزبير عن السودان واحتجز فى القاهرة .

بدأ غوردون فى تنفيـــذ مؤامرته بتفريق جيش سليمان واخضاعه لقيادات متعددة جعل عليهـا أعوانه من الأتراك والخونة [1] تاركا سليمان بلا جيش أو رجال حاكما على مديرية بحر الغزال . وقابل سليمان كل هذا بالسكوت فقد كان أبوه محجوزاً فى القاهرة كرهينة وكانت أية معارضة من سليمان كفيلة على الأقل

---

(١) « تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته » تأليف نعوم بك شقير ص ٩٠ .

بأن تحرج مركز أبيه فى القاهرة إن لم تكلفه حياته كلها . ولكن غوردون ما كاد يطمئن بعد ذلك إلى تجريد سليمان من كل قوة حتى أقدم على الخطوة التالية فعزله وعين بدلا منه إدريس ابتر ، وهو أحد الدناقلة الذين اشتهروا بعدائهم للزبير ، حاكما على مديرية بحر الغزال .

عندئذ لم يكن هناك بد من أن يتحرك سليمان للدفاع عن نفسه وعن كيانه ضد تلك المؤامرة المحبوكة. وكان هذا هو كل مايهدف إليه غوردون فى النهاية . إذ ما كاد سليمان يهب بقواته طارداً إدريس أبتر من بحر الغزال ، ضارباً عرض الحائط بتعيين غوردون له ، حتى مضى الأخير يملأ الدنيا صياحاً بما أسماه ثورة سليمان على الحكم المصرى ، بما مكنه فى النهاية من أن يسير ضده حملة حربية بقيادة أفاق إيطالى يدعى روميلوجيسى للقضاء نهائياً على كل ما بقى للزبير من قوة ونفوذ فى تلك الأصقاع .

ولكن ما هو دور رابح فى كل هذه الأحداث .؟

إن دوره فى الواقع منذ أن رحل الزبير إلى القاهرة إلى أن استسلم سليمان لقوات جيسى ليبدو للمحقق التاريخى غامضاً إلى حد بعيد . فنحن لا نعرف شيئاً على وجه التحديد عن جهود رابح فى تلك الحقبة من تاريخه . والظاهر أن رابحاً ، بسفر الزبير إلى القاهرة ، قد فقد الكثير من نفوذه فى جيش سليمان ، بل لسنا

نستبعد أن يكون سليمان قد أقصى رابحاً عن القيادة وقرب إليه غيره من القواد فقد كان سليمان صغير السن قليل الخبرة ، وتفاصيل المعارك التى نشبت بينه وبين جيسى وإن كشفت عن كفاح مستبسل ضد الاستعمار الانجليزى ، إلا أنها لا تخلو من

سليمان الزبير يقود أسراه من رجال جيسى وأعوانه

أخطاء حربية ما كانت لتقع أو تكلف سليمان حياته فيما بعد لو كان قد استمع إلى رأى قائد كرابح تمرس بالحرب وحنكته المعارك

إلى حد بعيد واكتسب من الخبرة بألاعيب السياسة أبان اتصاله بالزبير ما لم يتح لسليمان نفسه أن يكتسبه من أبيه .

* * *

ولقدحدث بعد عدد من المناوشات بين قوات سليمان وجيسى تأرجح فيها النصر بين المعسكرين دون الوصول إلى نتيجة حاسمة أن التقت القوتان عند سفح جبل مرعى حيث كان سليمان قد تحالف مع هارون والصباحى من أمراء دارفور فى ثورتهما ضد نفس الاستعمار ونفس فساد الحكم التركى .. وكانت قوات سليمان تختزن فى أعماقها حقداً هائلا على ذلك الرجل الذى جاء غازيا مستعمراً ، وكانوا يعلمون أنهم يقاتلون فى معركة حياة أو موت ، وكان سليمان نفسه عازماً على أن يقضى على عدوه فى تلك المعركة قضاء مبرما ، أما رابح فقد كان يقود فرقة من البازنجر وهم خيرة جنود سليمان الذين ظلوا مع قائدهم رابح على ولائهم لسليمان فى الوقت الذى كان قد انفض فيه كل من حوله من الأنصار .

استمرت المعركة طول اليوم عنيفة قاسية وابلى البازنجر فى ذلك اليوم بلاء مجيداً حتى اعتبرت تلك المعركة بحق من أقسى ما نشب بين سليمان وجيسى من معارك [1] ولم يلبث جيسى فى آخر

---

(١) كتاب «سبع سنوات فى السودان المصرى» لمؤلفه روميلو جيسى ص ٢٣٠

النهار أن ارتد مدحورا عن مواقعه وقد بدأت تلوح فى الأفق بوادر انهزامه حتى أنه لم يفكر فى اليوم التالى فى أن يعاود الكرة ، بل أرسل يطلب إمدادات جديدة ويستميل من حوله قبائل الرزيقات العربية التى لم تكن قد نسيت بعد ما أصابها من هزيمة على يد الزبير نفسه .

فى هذه الفترة الحاسمة التى كان من الممكن أن تشهد اندحاراً تاما لقوات جيسى يقضى على أطماع غوردون وصلت سليمان رسالة من أبيه فى القاهرة قلبت ميزان الأحداث وغيرت مصير سليمان ورابح تغييراً تاما . . فقد كان من الواضح أن ثورة سليمان قد أضرت بمركز الزبير الأدبى فى القاهرة ضرراً بليغا حتى لقد نبتت الشائعات بأن الزبير نفسه هو الذى حرض ابنه على الثورة انتقاماً لحجزه فى مصر مما أجبر الزبير ، وهو الذى كان يعيش كالأسير فى بلاط خديوى مصر على أن يكتب لابنه تلك الرسالة التى ينصحه فيها بالكف عن الحرب وبتسليم نفسه إلى غوردون مذكراً إياه بواجب الخضوع لحكومة الخديوى السنية [1] . ! !

وعملت الرسالة عملها الذى أريد لها أن تعمله فقد انقسم بمجيئها معسكر سليمان إلى فريقين : فريق ينادى بالتسليم والاستجابة

---

(١) كتاب « الزبير باشا رجل السودان » للمؤلف . ص ١٣١ .

لنصح الزبير وعلى رأسه سليمان نفسه ، وفريق آخر كان على رأسه رابح ينادى بالاستمرار فى القتال خاصة وان ذكرى انتصارهم القريبة على جيسى ما زالت حية فى أذهانهم .

وكان رابح بعيد الفكر ثاقب النظر فنهى سليمان عن التسليم لجيسى قائلا له (١) :

« لقد ناوأت جيسى فلا تتوقعن منه عفوا إذا صرت فى قبضته . أما أنا فيؤسفنى الانفصال عنكم بعد أن شاركتكم فى السراء والضراء هذه السنين الطوال ولكنى لا أسلم نفسى لجيسى لأن الدناقلة محيطون به ، وهو مطواع لهم وأنت تعلم ما بيننا وبين الدناقلة من عداوة قديمة . وإنى لأشير عليك بالذهاب غربا وفتح بلدان جديدة . . . »

ولكن سليمان لم يستجب لهذا الرأى ، وانتصر فى النهاية رأى الفريق القائل بالتسليم فلم يجد رابح مناصا عن الانفصال بقواته والاتجاه بها نحو الجنوب . أما سليمان فانه لم تكد تشرق شمس ١٤ يوليو ١٨٧٩ حتى سلم نفسه لجيسى الذى لم يلبث بعد أن أمنه على نفسه أن قتله غدرا وغيلة هو وثمانية من أعمامه .

---

(١) كتاب « حقائق الأخبار عن دول البحار » تأليف اسماعيل سرهنك باشا . الجزء الثانى ص ٣٣٥ .

وهكذا سقط سليمان وهو يدافع عن بلاده . . سقط كما يسقط الأبطال بعد أن أدى دوره فى مجاهدة الأفاقين الأجانب من أمثال غوردون وجيسى الذين كانوا يتصرفون لحساب دولهم وأطماعهم وإن حرصوا على الظهـــور بمظهر المنفذين لسياسة مصر وخديوى مصر . .

* * *

كان هذا هو أول احتكاك رابح بالاستعمار الأوروبى .

ولقد تلقى رابح من هذا الاحتكاك الدرس الأخير فى سلسلة الدروس التى تلقاها فوق أرض الجنوب . ولقد قدر له بعد ذلك أن يكافح الاستعمار الفرنسى لفترة من الزمن طالت حتى بلغت عشر سنوات كاملة فلم ينس غدر المستعمرين وخستهم فى القتال كلما ذكر أخاه سليمان وأعمامه الذين شاركهم سنين السراء والضراء وكيف قتلهم جيسى بعد أن استسلموا له وأصبحوا أسرى معزولين عن كل سلاح . . ولعل رابحا لم يكن فى حاجة إلى أكثر من هذا لكى تمتلىء نفسه بالقسوة والحقد على هؤلاء الأجانب ، وكأنى به بعد ذلك وهو يقتل فى غير شفقة أو رحمة كل من وقع فى يده من رسل الاستعمار الفرنسى ورجاله أمثال كرامبل ، وبيهاجل ، وبريتونييه ، وفورولامى ممن سيأتى ذكرهم بالتفصيل ،

إنما ينتقم لسليمان وأعمامه ممن اغتالهم الاستعمار الانجليزى فى خسة وغدر . .

وثمة شيء آخر . .

لقد كشفت تلك المعارك الطويلة التى خاضها رابح إلى جوار سليمان ضد جيسى ، كشفت لذلك الرجل الذى نشأ فى أصقاع الجنوب بين قبائل تعيش على حال من البداوة الأولى عن حقيقة الرجل الأبيض ، وعن حقيقة الاستعمار ومؤامراته ، وكيف يتسلل فى ثوب الحمل ليقبض على عنق الشعوب بمخالب الذئاب. ولقد كان رابح حقاً فى حاجة لأن يعرف كل هذا حتى لا تنطلى عليه خدعة أولئك المستكشفين الفرنسيين الذين انطلقوا فى أواخر القرن التاسع عشر يمهدون باسم العلم ، وباسم المدنية لذلك الغزو البربرى الذى منيت به أفريقيا أو القارة السوداء كما كانوا يسمونها وكما سيطالع القارئ فى الفصول القادمة .

---

# رابح ... والحركة المهدية ...

« رابح يتجه نحو الجنوب ـ شهرة رابح تبلغ المهدى ـ دعوة المهدى لرابح ـ وفاة المهدى ـ رابح وعبد الله التعايشى ـ السيد السنوسى ـ رابح يصاهر السنوسى »

---

اتجه رابح ومعه حوالى الألف من رجال البازنجر المسلحين بنحو أربعمائة بندقية نحو الجنوب بعد انفصاله عن سليمان الذى فصلنا ظروفه فى الفصل السابق . وهناك بين القبائل التى تعيش فى تلك المنقطة بدأ رابح حياة جديدة لحسابه الخاص إن صح هذا التعبير . . فقائده الأول ، الزبير ، أسير فى القاهرة . وسليمان ، صديقه وأخوه ، قد راح ضحية غدر جيسى ونكثه بالعهود . وبلاده التى نشأ فيها وأحبها قد أجلاه عنها مستعمر غاصب . وذلك الجيش الكبير الذى تولى قيادته حقبة طويلة من الزمن قد تناقص وانكمش تحت ضربات الأحداث فلم تبق منه غير تلك الفرقة المخلصة الوفية من رجال البازنجر .

كانت كل الأسباب إذن قد قطعت بين رابح وماضيه نهائيا . .

وألقت به إلى هذه الحياة الجديدة وكأنما قد طوت صفحة لتنشر أخرى جديدة فى سطورها ، مبهمة كذلك المجهول الذى يتربص به فى تلك المناطق التى تقطنها قبائل وثنية معادية لم تلمسها بعد يد الدين أو التحضر اللذين عرفهما رابح فى حوض بحر الغزال .

ولكن رابحا لم يستسلم مع ذلك لوحشة المجهول الذى ألقت به الظروف بين أحضانه ، بل نشط إلى مزاولة حياة الحرب والقتال التى تعيش فى دمه ، فمضى يخضع القبائل ، ويغزو البلاد الواقعة على حدود دارفور الغربية ناشرا خلفه الدين الاسلامى ، معليا لواء زعامته الناشئة المتوثبة حتى أقبل عام ١٨٨٥ فاذا اسمه قد بدأ يدوى فى تلك الأصقاع وينتشر كموجات من الماء فى بحيرة ساكنة حتى تلقفته فى النهاية أذنا محمد احمد المهدى الذى كانت قواته تدك فى ذلك الحين أسوار الخرطوم وترسل فى سماء السودان أول صيحة للتحرر الوطنى ضد الاستعمار الانجليزى والفساد التركى . .

بلغت شهرة رابح إذن إلى آذان المهدى فتاق إلى أن يضمه إلى صفوفه ليكسب لدعوته قائدا لا يجيد فنون القتال إجادة تامة فحسب ، وإنما بينه هو الآخر وبين الاستعمار الانجليزى والفساد التركى ثأر قديم فأرسل إليه رسولين الأول يسمى زين العابدين والثانى يدعى جبار حاملين

اليه دعوته للانضمام اليه . والواقع أن حركة المهدى لم تكن حركة دينية متعصبة كما رماها بذلك الاستعمار الانجليزى ليؤلب ضدها كل العناصر وكما أراد لنا دائما أن نفهمها . وبالرغم من أن تتبع هذه الحركة والعوامل التى أدت إلى نشأتها مما يخرج عن نطاق كتابنا هذا إلا أننا لانملك هنا إلا الوقوف أمام دعوة المهدى لرابح ، ودعوته فى نفس الوقت للسيد محمد المهدى السنوسى ليكون خليفته الثالث وهو الذى كان يبسط نفوذه فى ذلك الحين على طرابلس وودّاى ومناطق السودان الغربية . هاتان الدعوتان تظهران بجلاء رغبة المهدى فى أن يجمع كل الصفوف ، وأن يوحد كل الجهود نحو هدف واحد هو تطهير السودان من كل غاصب أو دخيل مستعينا فى سبيل ذلك بكل القوى والامكانيات مما يخرج بدعوته عن نطاق الذاتية المتعصبة إلى نطاق القومية الواسعة التى تهدف إلى خلق وطن حر موحد .

ولقد رحب رابح بالانضمام إلى المهدى . . ربما لأنه وجد فيه بديلا عن قائده الأول ، الزبير ، الذى لم تلبث المؤامرات ان نفته إلى جبل طارق لتبعد به عن نطاق حوادث الحركة المهدية . . بديلا يستطيع أن يعكس ما كانت تغلى به البلاد فى ذلك الحين من عوامل السخط والثورة . . أو ربما رحب بذلك الانضمام ليغسل بدم غوردون ذكرى مقتل سليمان . على أية حال فقد كان رابح

سريعاً إلى الترحيب بتلك الدعوة وإلى تلبيتها فما كاد يصل اليه رسولا المهدى حتى بدأ يتحرك بقواته للانضمام إليه غير أنه ما كاد يبلغ حدود دارفور الغربية حتى بلغه موت المهدى فى ٢٢ يوليو ١٨٨٥ وتولى عبد الله التعايشى الزعامة من بعده . عندئذ كان على رابح أن يقف قليلا ، وأن يراجع موقفه من الحركة المهدية بعد هذا التغيير الذى قفز بعبد الله التعايشى إلى منصب الزعامة الأول .

وكان بين رابح وعبد الله التعايشى هذا تاريخ قديم .

فقد حدث أثناء حرب الزبير مع عرب الرزيقات أن وقع فى الأسر فقيه من فقهاء التعايشة يدعى عبد الله ود محمد آدم تورشين ، وكان الرزيقات قد استخدموه ليقرأ لهم الأسماء فى خلوته لعلها تقبض على سلاح الزبير فلا يطلق ناره فى ساحة الحرب وتعهدوا له فى مقابل هذا ببقرة حلوب فلما وقع هذا الفقى فى الأسر لم يتردد الزبير فى الأمر باعدامه .

وكان مع الزبير فى ذلك الوقت اثنا عشر عالماً من علماء الدين وقد جعلهم يقسمون له على القرآن الشريف بأنهم إذا رأوا منه فى أحكامه اعوجاجا عن الشرع ينبهوه إليه . فلما أمر باعدام ذلك الرجل ، الذى عرف فيما بعد باسم عبدالله التعايشى ، اعترض هؤلاء العلماء بحجة أن الشرع لا يجيز له قتل أسير من أسرى الحرب فضلا عن أن حسن السياسة ينكر على الزبير إعدام رجل

يعتقد الناس فى صلاحه وطيبته . غير أن رابحاً لم يكن يرى هذا الرأى فعارض فى الابقاء على حياة عبدالله هذا بحجة أن اعتقاد العامة فيه واتجاره هو بالدين على هذا النحو قد يثير من الفتن ما يكشف مؤخرة قوات الزبير التى كانت منهمكة فى ذلك الوقت فى قتال مرير مع عرب الرزيقات .

ولكن الزبير فضل فى النهاية أن يستجيب لرأى علمائه فتراجع عن قتل أسيره الذى استطاع بعد ذلك ، عندما اشتهر أمر محمد احمد المهدى فى جزيرة « أبا » أن يتصل به وأن يتقرب إليه حتى فاز بثقته ، فلما دان للمهدى حكم السودان عينه خليفة له إلى أن مات فبايع الناس عبدالله التعايشى هذا اماماً وحاكما من بعده[1] .

* * *

توقف رابح إذن عند حدود دارفور عندما بلغه نبأ موت المهدى وتولى عبدالله التعايشى الزعامة من بعده ..وكان عليه أن يفكر مرتين قبل أن يقدم نفسه إلى الرجل الذى حرض الزبير يوما على قتله والذى نادى بوضع حد لحياته ذات يوم منذ أكثر من عشر سنوات .

ولم يطل التفكير برابح إذ كان من الطبيعى عندئذ وبعد أن

---

(١) كتاب « تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل » تأليف الأستاذ الياس الأيوبى الجزء الثانى ص ٤٩ .

سارت الأمور على ذلك النحو أن يرفض الانضمام إلى الحركة المهدية خوفاً من انتقام عبدالله التعايشى فقرر الرجوع بقواته إلى اقليمه السابق ليعاود الغزو والفتح هناك ويضيف إلى ذلك اشتغاله بتجارة العاج والصمغ وريش النعام .

ونحن لا نستطيع هنا أن نجد أى اعتراض على قرار رابح هذا بعدم الانضمام إلى الحركة المهدية إذ أن عبد الله التعايشى لم يلبث أن بدأ عهداً من الارهاب فيمن حوله من القادة والاتباع فكان لا يتورع عن أن يلقى إلى السجن أو الموت كل من يخشى منه على مركزه أو زعامته وقد كان من المحقق أن يلقى رابح على يدى التعايشى مصيراً كهذا . .

* * *

فى هذه الفترة من حياته اتصل تاريخ رابح بزعيم دينى آخر هو السيد محمد المهدى السنوسى اتصالا قدر له أن يلعب دوراً هاماً فى حياة رابح وفى كفاحه ضد الاستعمار الفرنسى بعد ذلك .

والسيد محمد المهدى السنوسى هذا هو ابن محمد بن على السنوسى مؤسس الطريقة السنوسية التى يدين بها معظم القبائل التى تقطن الصحراء الليبية . وقد قام بعد وفاة أبيه بنشر طريقته ومعه أخوه السيد محمد الشريف السنوسى جاعلا من واحة جغبوب مركزاً له. وقد ازداد عدد المريدين للسنوسية على عهد محمد المهدى هذا

أضعافا كثيرة وكان من بين من اتبعوه ملك وداى وجميع أهل مملكته وكان هذا الملك يجمع له الهدايا كل عام ويرسلها له مع رسل مخصوصين ويشاوره فى جميع شئونه حتى أنه لم يكن يقطع أمراً دون مشورته[1].

ولمحمد المهدى هذا زوايا كثيرة متفرقة فى الحجاز والغرب والبادية وكان فى كل زاوية خليفة من قبله يدير شئونها ويبايع الناس فيها بدلا عنه ويعلم فيها أولادهم القرآن ومبادىء العلوم. وكان هذا الخليفة ينشأ له زرع بمساعدة السالكين عنه ويقتنى الماشية فيصرف من ذلك على الزاوية وما زاد يرسله إلى شيخه السنوسى. وقد كثرت الزوايا بالبادية حتى صار دخلها عظيما وحتى صار محمد المهدى أشبه بملك يجبى إليه الخراج. وكان له مقام عند أهل طريقته أشبه بمقام الملوك. وكان أهل البادية لا يعرفون حاكما غيره ولا يخضعون للحكام إلا بواسطته بل كانوا يعتقدون أنه هو المهدى المنتظر وإن كان هو لم يعلن هذا أو يرده.

ولقد أرادت الدولة العلية إبان سيطرتها على طرابلس استدعاءه إلى الآستانة فلما شعر بذلك رحل من جغبوب ونزل بالكفرة عن طريق ودّاى وبنى له زاوية هناك وجعل منها مقـــراً له حتى آخر أيامه.

---

(١) « دائرة المعارف البستانية » المجلد العاشر ص ١٤٦.

وفى الكفرة سمع السيد محمد المهدى السنوسى باخبار رابح وفتوحاته فكان طبيعيا أن يجد فيه حليفا قويا فاتصل به عن طريق رجاله ولم يلبث هذا التحالف أن توج بزواج فتح الله نجل رابح باحدى كريمات السيد السنوسى وتدعى خديجة فزادت هذه المصاهرة فى توثيق الصلات والاواصر بينهما .

ولقد كان السيد السنوسى شديد الكراهية للاجانب لا يسمح لهم أن يطأوا زاويته ، بل لا ينشطهم حتى على التجول فى الصحراء فى أرض زواياه ولايحب أن يتدخل أحد من الأجانب فى شئونه . وبمقتضى هذه السياسة الوطنية كان على رابح ، بالاتفاق مع السنوسى القيام بمهمة حماية تلك البلاد من تسرب بعثات الفرنسيين اليها . وعلى هذا الأساس اقتنص رابح فى عام ١٨٩١ بعثة بول كراميل عند بلدة « الكوتى » وقتل رئيسها فكان هذا بدء اصطدام رابح بالفرنسيين ، وهو الاصطدام الذى حمل رابح بعد ذلك عبئه على كتفيه طوال عشر سنوات كاملة لم ينكص أو يتراجع وإن كان السنوسى ، وكأنما قد خاف على نفسه مغبة هذا الصدام ، قد آثر أن يتنصل من مقتل كراميل وأن يهادن الفرنسيين ويتبادل معهم البعثات تاركا رابحاً وحده ، حليفه وصهره ، يواجه الموجات المتتالية من حملات الفرنسيين كما سنرى فى الفصول القادمة .